ثورة الزنج والتأسيس النظري لها وواقعها العملي

ياسر جاسم قاسم

حالة الرق حالة قديمة لم تستطع الأديان التي تنادي بحرية الناس القضاء عليها، ومن ضمنها الدين الإسلامي حيث حاول الإسلام جاهداً القضاء عليها ولكن لم يتم ذلك له، بسبب تغلغل الحالة داخل الجسد العربي آنذاك. لذلك حاول بالتدريج ولم ينجح حيث استمرت حالة الرق حتى عصور متأخرة من العصر الحديث. إن الضعيف عندما يسيطر عليه القوي ويذيقه شتى أنواع المرارة فإن الضعيف يتحين الفرص للقضاء على القوي أو لرد اعتباره نوعاً ما. وبالتالي نفهم أن ثورة الزنج قد حدثت نتيجة هذه المعادلة تحين الفرص للقضاء على الغني. وإذا أردنا أن نعرف أي ثورة هي علينا التعريف بصاحبها وهذه نقطة هامة للغاية حيث يعد صاحب الثورة ومفجرها والمعروف بـ((صاحب الزنج)) وهو اللقب الذي أطلقه المؤرخون على علي بن محمد الذي ظهر في فرات البصرة سنة ٢٥٥هـ فقاد الزنج في ثورتهم الكبرى التي دامت نحواً من أربع عشرة سنة ((٢٥٥هـ- ٢٧٠هـ)) وفي الكلام على نسبه فهناك من يزعم أنه فارسي. أما الرجل فهو ينسب نفسه على لسانه فيقول ((انه علي بن محمد بن احمد بن علي بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب))[1] وهناك من المؤرخين من يقول إنه غير نسبه مرات عدة فالطبري في الجزء الثالث ١٧٤٣ يقول: انه ادعى انه علي بن محمد بن الفضل بن حسن بن عبيد الله ابن العباس بن علي بن أبي طالب وهذه مسألة هامة في تحديد شخصه وماهيته وفي الاعتقاد أنه يغير نسبه غير مرة، وذلك للظروف التي تحيط به في لحظة معينة فهو ولد ونشأ في بلاد فارس في قرية كبيرة تدعى ورزنيين من قرى الري وكان اسمه علي ابن محمد بن عبد الرحيم وينتهي نسبه في قبيلة عبد القيس[2] وذكر عنه، كان يقول ((إن جدي محمد بن حكيم من أهل الكوفة أحد الخارجين على هشام بن عبد الملك مع زيد بن علي بن الحسين فلما قتل زيد هرب ولحق بالري[3] ويعد الصفدي في مخطوطته الوافي بالوفيات اول كاتب يذكر لصاحب الزنج كنية هي ((ابو الحسن)) كما نقل الرواية الجديدة التي يذكرها عن نسب والدة صاحب الزنج وقصة مجيء والد علي الى ورزنيين فيقول: انها قرة بنت عبد الواحد ابن محمد الشامي والدها كان معتاداً على الحج سنوياً الى مكة ثم انه كان يمر بالمدينة حيث ينزل على شيخ من ال ابي طالب حاملاً له الهدايا من الري وحدث انه في سنة من السنين وجد الشيخ متوفياً تاركاً ابنه محمداً وعمره انذاك ١١ سنة وقد عرض والد قرة على الصبي مرافقته الى الري ولكنه رفض لعدم موافقة والدته واخته. وفي السنة التالية وجد عبد الواحد والد قرة الطفل محمداً وحيداً اذ توفيت والدته واخته ولذلك فإنه جاء به الى قرية ورزنيين وزوجه بابنته قرة فولدت له ابنتين ماتتا صغيرتين وولدا اسماه علياً وهو قائد الزنج ولم يستمر زواجهما طويلاً فقد فارقته قرة لأن محمداً كان متلافا وتزوج عليها جارية اشتراها، وقد اخذ ابنه علياً معه وبعد سنين عديدة رجع الى امه في ورزنيين اثر وفاة والده، واقام معها ردحا من الزمن، ثم ذهب الى خراسان حيث بقي هناك سنتين رجع بعدهما مرة اخرى الى ورزنيين ليبقى فترة، ثم يغيب عنها نهائياً الى أن اعلن ثورته ونجح فيها فدعا والدته الى المجيء الى البصرة غير أنها رفضت ذلك[4].

وبعض المصادر تشير إلى أن أصله فارسي كما أسلفت

واسمه بهبوذ[٥] كما أن صاحب الزنج كان عربي الأصل بل كان علوياً اسمه علي بن محمد العربي كما تشير مصادر أخرى. ولكن الشك في نسبه العلوي مازال قائماً على الرغم من نص الطبري على ذلك فيقول المسعودي إن أكثر الناس يقول انه دعي آل أبي طالب، ويؤكد نولدكه في هذا الموضوع: إن صاحب الزنج ((ادعى انه من نسل علي وفاطمة بنت الرسول، وربما كان هذا الادعاء صحيحاً وذلك إن نسل علي آنذاك كانوا يعدون بالآلاف ولم تكن لهم كل أهمية تاريخية تذكر لكنه ربما كان نسبه مجرد اختراع))[٦] واعتقد أن هذا الاختلاف الكبير في نسبه ناشئ من عدم دقة تاريخنا العربي حول الكثير من المسائل واتباع بعض المؤرخين أهواءهم ونقمتهم من أي شيء يدعى للعلويين. طبعاً ليس كلهم ولكن الغالبية العظمى منهم تنتمي لمذهب معين وتنقم من مذهب آخر عند تناوله؛ وهذا هو دأبهم ونراه في اغلب كتب التاريخ؛ واذكر كتاب الملل والنحل للشهرستاني حيث يدعي في بداية كتابه ابتعاده عن أي تحيز ضد أي مذهب، وطرح المذاهب كما هي، ونراه يتناقض مع نفسه بنقمته من الطائفة الشيعية ووسمهم بالرافضة في اغلب تناولاته. وهذه تسمية كما معروف لا يحبها الشيعة، ويتبرؤون منها ويجزمون أن اعداءهم ينسبونها إليهم وبالنتيجة فإن التاريخ الذي ورثناه لا يبين لنا الكثير من الحقائق التاريخية التي لها علاقة بالعلويين كإخوان الصفاء/ وثورة الزنج، وغيرها من الأمور، ولا غرابة أن يكون صاحب الزنج من العلويين لسبب رئيس وهو نقمة العلويين على الأنظمة الحاكمة على مر العصور. وقد تكون نسبته للعلويين لإضفاء المزيد من الشرعية على ثورته، وهذا شأن وارد أيضاً كما عاش علي بن محمد في سامراء عاصمة الخلافة العباسية، ورحل عنها عام ٢٤٩هـ((٨٦٣م)) إلى البحرين متأثراً بما شهد وسمع في عاصمة الخلافة من فوضى واضطراب اشد التأثر. ولعل علي بن محمد صمم على أن يفعل شيئاً مذ كان في سامراء غير انه ادرك أن هذه المدينة لم تكن مركزاً صالحاً لأي عصيان على الخلافة؛ بسبب الرقابة الشديدة، والجاسوسية المحكمة، ووجود السلطة المركزية. وقدم علي بن محمد بعد رحلة طويلة إلى البصرة، سنة ٢٥٤هـ، وكان عاملها محمد بن رجاء الحاظري، وصادف قيام فتنة بين الأتراك أيضاً وفي هذه السنة كانت البصرة على أشد أوضاعها خراباً، بسبب الفتنة وتطورها وهكذا استفاد صاحب الزنج من هذه الظروف المؤاتية، وحاول أن يبدأ دعوته في مسجد البصرة. غير أنه أخفق وطارده الجند، ولاذ بالفرار إلى بغداد، غير أن الوالي قبض على أتباعه. وبذلك هو مهد لحركته وظل في بغداد يترقب الفرص يدعو لنفسه، ولم ينس أن يستخدم التقية في تصرفاته ويحيط نفسه بالغموض لكي يحمي نفسه. ثم انه ظل يترقب البصرة كما أسلفنا حتى عزل عاملها محمد بن رجاء الحاظري عدوه اللدود وقامت فتنة أخرى بين الأتراك فعاد إلى البصرة سنة ٢٥٥هـ ومعه أعوانه الستة المقربون وهم علي بن أبان ويحيى بن محمد ومحمد بن سلم وسليمان بن جامع والفلاحون وشرق ورقيق[٧] وكان يهدف من مجيئه للاتصال بالزنج المشتغلين بكسح السباخ ويدرس أحوالهم ويقوي علاقته بهم. واخذ الزنج يتصلون به ويجتمعون حوله ويعتبر البيروي يوم الاثنين ٢٦/ رمضان /٢٥٥هـ((٦/٩/٨٦٩م)) يوم القيام بالثورة وهذه الثورة تدلك على ذكاء صاحبها، فعلي بن محمد لم يعتمد على أناس أثرياء أو أصحاب جاه، أو ليس لهم صلة في الواقع المعيش آنذاك؛ بل اعتمد على ضعفاء الناس، وعلى القوم المسبيين من قبل السلطة ومن قبل الأقوياء من الناس، وبالنتيجة سيكون لمعادلتنا الأولى التي ابتدأنا بها هذا البحث وجود في هذه المسألة، فالضعيف يقتنص الفرص للغلبة على القوي وهنا يتبين لنا مسألة مهمة سنعرض لها وبشكل اكبر تفصيلاً فيما سيأتي بهذا البحث، حيث إن الزنج تسببوا بثورتهم بخراب البصرة وهذا يدل على تماديهم في اخذ حقوقهم، فهم مظلومون وهذا شيء مؤكد ولكن لا يسوغ لهم أن يظلموا الناس بمجموعهم المجتمعي ويحرقوا ويقتلوا ويسرفوا كما سيتبين لنا ذلك، ولكن صاحب الزنج تسامح في حالات كثيرة مع الأبرياء والمحايدين كما فعل في قريتي القادسية والجعفرية.

بعد هذه المقدمة التاريخية نتساءل عن هذه الثورة وعن أهدافها التي انبثقت من اجلها. فهل كانت ذات برنامج يهدف الى إصلاح شامل للنظام الاجتماعي القائم؟ أم كانت

مجرد حركة ضيقة ترمي إلى تحسين أحوال طبقة الزنج؟ نحن قبل أن نثير هذه المسألة علينا أن نعرف أن منشأ هذه الحركة هو ديني عقائدي بحت، وهذا بين من خلال انتساب علي بن محمد إلى العلويين لإضفاء صفة الشرعية على ثورته. وبالنتيجة سيكون لهذه الثورة صدى اكبر عند العامة من الناس بانتسابها للعلويين لاسيما إذا عرفنا أن هذه السنين التي واكبت هذه الثورة سنو ظهور قوية لمذهب التشيع حيث شهد غيبة الإمام المهدي سنة ٢٦٠هـ اي بعد ٥ سنوات من اندلاع الثورة حسب العقيدة الأثني عشرية أيضاً، وخروج الصفاريين ودورهم الرئيس في انتشار المذهب الشيعي وغيره من الأمور المهمة[٨]. استطيع القول إن هذه الثورة بعد هذه الإشارة إلى تشيعها كان أساسها اجتماعياً إصلاحياً بداية الأمر، ولكن اتخذت من الدين ستراً لها وبالتالي فإن ثورة الزنج دعت إلى تحسين أحوال العبيد ومعاملتهم كما أمر الله ورسوله بالرفق والحسنى والعمل على تحريرهم وبأي وسيلة كانت، وحسب الشريعة الإسلامية، كما أن صاحب الزنج كان يدرس التنجيم وما يتصل به من التنبؤ والسحر. حتى أنه كان يستطيع أن يعرف متى كسوف القمر وكان يخدع جماعته بإخبارهم بمعرفة وقت الكسوف لأنه يعرف حسب حسابات فلكية فيصدقونه على أنه يعرف مالا يعرفون هم، فيزداد انبهارهم به ومن ذلك انه لما أراد دخول البصرة سنة ٢٥٧هـ نظر في حساب النجوم ووقف على انكساف القمر وقال: اجتهدت في الدعاء على أهل البصرة وابتهلت إلى الله في تعجيل خرابها، فخوطبت فقيل لي إن البصرة خبزة لك تأكلها من جوانبها، فإذا انكسر نصف الرغيف خربت البصرة فأولت انكسار نصف الرغيف كسوف القمر المتوقع في هذه الأيام[٩] وهذا يدلل على ذكائه في جذب العامة وثورته هي ثورة العبيد الأفريقيين في البصرة وما حولها ضد أسيادهم حيث كانت تمثل أحد عوامل القلق الذي كان ينتاب بعض الطبقات الاجتماعية ومنها طبقة الأفارقة أو الزنج، وثورة الزنج حرب اجتماعية ذات طابع طبقي أي إنها ثورة العبيد وأنصاف العبيد ضد الملاكين من أصحاب الأراضي، وقد اشترك في جيش الزنج جماعات كبيرة من غير السود كالأعراب، وأهل القرى، والعمال، وأصحاب الحرف وهذه الثورة تضفي صفة العمومية عليها، وذلك لعدم تخصصها في العبيد فقط على الرغم من إنهم كانوا قادتها والمخططين لها، ولكن الضعفاء كذلك عندما وجدوا اهدافهم في الثورة اشتركوا بها ومن دون تلكؤ.

وهكذا وقعت الثورة بتجاوز حقوق الناس، والمبالغة في اخذ حقوق الزنج، والثورة لم تعمل لتحرير الزنج فحسب بل عدت اعداءهم أسرى حرب تحق عليهم العبودية، ولعل ما يبرر القسوة التي وقعوا بها ان الثورة، كانت بين طبقات المجتمع الفقيرة المتمثلة بالعبيد ومن تبعهم، وبين الأغنياء والسلطة الحاكمة وبالنتيجة، فهو يريد أن يضعف همة أعدائه ولم تقف ثورته على اساس من العدل الاجتماعي سوى الذي حققه لجماعته من العبيد الذين تبعوه أول الثورة.

ولكن نستطيع القول إن ثورة الزنج أول حركة تمخض عنها الوضع الاجتماعي الجديد في القرن الثالث، ويبدو أنها كانت الشرارة التي أشعلت الأفكار الكامنة لدى مريديها فلم تلبث السنون القادمة، حتى انبثقت ثورة القرامطة، وحركتهم وثورة الزنج مهدت التربة لكي ينشر القرامطة دعوتهم على نطاق واسع، لان الدعوتين وان اختلفتا في الأسلوب والبرنامج اتفقتا في ضرورة تغيير النظام القائم أي أنها أسهمت في بث الوعي الذي تريده بقية الحركات وأعطتهم قدرة على المواجهة مع النظام القائم، وبالنتيجة فإن هذه الحركة أخفقت لسبب مهم هي أنها كانت ثورة طبقية، وليست ثورة شعبية بحق وهذا قد تناولناه لان الثورة لم تنطوا على برنامج وأسس فكرية ثابتة، لأنها اعتمدت وانطلقت من أسس دينية ولكن انتقمت من الناس، وخربت البلاد، ودمرت ممتلكاتهم ولم تكتف بتحرير العبيد بل قامت باستلاب حرية الآخرين، وجعلهم عبيداً أي غالت بطلب حقوقهم ولكن علينا أن لا نغفل مقولة بعض المؤرخين حول صاحب الزنج وتبرئتهم له من الأعمال الفاسدة حيث يقول ابن كثير: إن صاحب الزنج لم يكن يتعرض لأموال الناس، ولا يؤذي احداً إنما كان يريد اخذ أموال السلطان[١٠] وكذلك يبرئ الطبري صاحب الزنج بأنه منع أصحابه من الغارة على القرى الآمنة، ولكن هذا لم يمنع هذه الثورة كغيرها من الثورات

من وقوع الضرر على غير المستهدفين من قبلها، ولو انتقلنا إلى الجانب العسكري لها فسنرى أن الزنج استفادوا من وضع البصرة الجغرافي، وكثرة الأنهار فيها، واشتهارها بغابات النخيل مما جعل التحرك صعباً بها من قبل العباسيين للقضاء على الزنج، وثورتهم، ولكن تحرك الزنج بها كان سهلاً لمعرفتهم بجغرافية البصرة وعيشهم زمناً طويلاً فيها، حيث استطاعوا بجيوشهم الانتصار على القوات العباسية في الكثير من الوقائع، بسبب سهولة المنطقة لديهم، وصعوبتها على الجيوش العباسية وهكذا بدأ الخليفة الموفق العباسي أعماله ضد الزنج بإرسال جيش يقوده غلامه سعيد بن صالح الحاجب في رجب ٢٥٧هـ واستطاع الحاجب أن يكبد الزنج خسائر فادحة أول الأمر حين هزم جيشاً زنجياً كان يعسكر على نهر المرغاب المتفرع من نهر معقل، غير أنه أصيب بجراح خطيرة أرغمته على أن ينسحب إلى موضع يقال له هطمة بفرات البصرة، ليعيد تنظيم جيشه. والحاجب استطاع التغلب على الزنج غير ان الزنج ما لبثوا أن باغتوا جيش الخلافة في هجوم ليلي بارع فأحرقوا معسكره، وقتلوا الكثيرين، وعزل الحاجب، وتسلم منصور بن جعفر الخياط مكانه ولاقى ايضاً من القتل في جيشه عدداً هائلاً وهكذا استطاع الزنج التغلب على اغلب الجيوش العباسية التي بعثت لها للقتال والقضاء عليهم. وقد سبق هاتين المحاولتين محاولات أخرى نبتعد عن ذكرها لان بحثنا ليس بحثاً تاريخياً بل تحليلياً لهذه الثورة الهامة.

ومهما يكن فإن الهدف الرئيس لهذه الثورة وصاحبها هو احتلال البصرة، وفعلاً استطاع الزنج تخريب كل القرى المحيطة بالمدينة استعداداً لدخولها والسيطرة على طرقها الرئيسة المؤدية لها. واستفاد الزنج من الحالة الأمنية والسياسية المتدهورة في المدينة نتيجة الخلاف بين الربعيين وهم شيعة والسعديين وهم سنة[11] وحشد صاحب الزنج خيرة قواده لدخول البصرة فأسند القيادة العليا إلى علي بن ابان مع يحيى بن محمد وصمم الجيش الزنجي على مهاجمة المدينة في يوم الجمعة ١٧/شوال/ ٢٥٧هـ/٨٧١/٩/٧م. فدخل الجيش البصرة وجرت عمليات القتل والسلب والنهب ((فكان السيف يعمل في أهل البصرة وأصواتهم مرتفعة بالشهادة وعظم الخطب، وعمها القتل والنهب والإحراق وقتلوا كل من رأوا فيها من أهل اليسار واخذوا ماله[12] وحدث خراب البصرة الذي ذهب مثلاً يؤرخ فيه أهل البصرة لهذه الحادثة، واستمر الزنج في توسعهم باحتلالهم البصرة حتى وصلوا إلى البطيحة، واخذوا يتوسعون إلى جنوب واسط واستطاع سليمان بن جامع قائد الزنج أن يدخل واسط سنة ٢٦٤هـ فهجر السكان مدينتهم، وخرجوا حفاة الأقدام هائمين على وجوههم فزعين كما يصفهم المؤرخون وكسب الزنج في سنة ٢٦٥هـ نصرا مؤزراً بدخولهم النعمانية فأحرقوا سوقها وأكثر منازلها وبلغوا إلى قريب بغداد أي أقل من ٧٠ ميلاً جنوب بغداد. وهكذا استدعى الخليفة المعتمد العباسي الموفق إلى مكة من قبل المهتدي، لأن الخليفة المعتمد أدرك خطورة ثورتهم وعدم قدرته على السيطرة على الثورة وحده، ولكفاءة الموفق العسكرية والتي ستثبتها الأيام التالية، المهم نستطيع أن نعد سنة ٢٦٦هـ، بداية قوة العباسيين، وأفول نجم الزنج فاستعد الموفق لحملة حاسمة ضد الزنج، واستعرض جيشاً قوامه عشرة آلاف مقاتل، وكان يرافقه سفن حربية، وتحرك أبو العباس بن الموفق نحو ((جرجاريا)) بعد أن عبأ جيشه تعبئة دقيقة واستقر قرب واسط، واستطاع أبو العباس أن يهزم سليمان بن جامع فأجبره على الانسحاب من واسط والتقهقر. أما الزنج فقد اخذوا بدورهم الاستعداد لواقعة أخرى، وهزموا مرة أخرى قرب واسط، ويبدو أن سليمان بن جامع شعر بقوة الجيش العباسي، فقد امتنع عن الحرب لمدة شهر كامل، واعتمد استراتيجية الهجوم السريع والانسحاب، وكان يقوم بعملية حرق السفن الحربية العباسية، ويزيلون القناطر وينسحبون وعلى الرغم من شجاعة الجيش بقيادة أبي العباس، ولكن لم يستطع الانتصار على الزنج حتى حضر الموفق العباسي بنفسه في ١١/صفر/٢٦٧هـ لإدارة دفة القتال وكان هدفه احتلال المنيعة مركز الزنج قرب واسط، ودخل الجيش فعلاً هذه المدينة المحصنة في ٨/ربيع الآخر/٢٦٧هـ وقد تأثر صاحب الزنج لسقوط هذه المدينة بيد الخلافة العباسية ثم تحرك الموفق نحو طهيثا ودخلها في ٢٧/ ربيع الآخر وقتل الجبائي

وكان من أعظم قواد صاحب الزنج وأكثرهم طاعة له ثم دخل المنصورة بسهولة ثم توجه نحو الأهواز، واستطاع دخولها أيضا، واقتصر سلطان الزنج على المختارة، وما جاورها من ارجاء ابي الخصيب، وظل الموفق في هذه المنطقة يعد العدة للحرب حتى ١٤/شعبان/٢٦٧هـ وبنى هناك مدينة على ضفاف شط العرب اسمها الموفقية لكي يضرب حصاراً على المختارة عاصمة الزنج، وفرض الحصار على الزنج، وبدأ يأخذ أكله، حيث حلت سنة ٢٦٨هـ حتى اخذ الزنج يقاسون المجاعة، وندرة الأقوات مما أدى إلى شل قوتهم، وإضعاف صفوفهم الى سنة ٢٧٠هـ حيث أن الموفق هاجم المختارة سنة ٢٦٧هـ وخرب فيها الكثير وانسحب في نفس ليلة الهجوم، ثم سنة ٢٦٨هـ كذلك وظلت المختارة تقاوم الهجوم والحصار حتى شعبان ٢٦٩هـ حيث تمكن أصحابه من إحراق بعض قصور صاحب الزنج، وفي ذي القعدة سنة ٢٦٩هـ عزم الموفق على دخول المدينة واحتلالها من الجانب الشرقي من نهر أبي الخصيب وبدأ الزحف في ٧/ذي القعدة/ براً ونهراً وكان تعداد الجيش خمسين ألف مقاتل، واستطاع الموفق احتلال المختارة، وحملت نساء صاحب الزنج وأولاده وبناته إلى الموفقية التي مر ذكرها آنفاً[١٣]، وقد بلغ قتلى هذه الحرب على ما يروى آلاف من المسلمين ومن الفريقين وأدخل رأس علي بن محمد بغداد ١٨/ جمادى الأولى/ ٢٧٠هـ.

إن الزنج بما فعلوه في هذه الثورة، وقبلها وبعدها لا يستطيع أي باحث أن يجزم بانهم قد فعلوا كل هذا بدون تنظيم رسمي، لكل قوتهم وخططهم واستراتيجيتهم، وهذا واضح حتى من اختيارهم للبصرة وجغرافيتها الصعبة، حيث الأنهار المتشابكة والاهوار، وعدم قدرة الجيش العباسي، والأتراك على ملاحقتهم، لعدم قدرتهم على القتال في مثل هذه الظروف القاسية، وكذلك قدرتهم على فتح الكثير من المناطق شملت القسم الأدنى من العراق والأهواز حتى وصلت الثورة إلى قريب بغداد وتبعد ٧٠ ميلاً عن العاصمة، واختيار المختارة عاصمة لهم كان دقيقاً أيضاً حيث تمثل الاختيار على نهر أبي الخصيب مكاناً حصيناً تتشابك فيه الأنهار والأشجار، وهذا يدل دلالة أكيدة على التنظيم الكبير الذي قامت به جماعة الزنج وكان من الطبيعي أن تكون المختارة على هيئة قلعة حربية لتستطيع الصمود في وجه الغارات المتلاحقة التي كان يشنها على المختارة العباسيون، بالإضافة إلى أن المختارة كانت محصنة تحصيناً طبيعياً بنهري شط العرب وأبي الخصيب من الجهتين الشمالية والشرقية فإنها أحيطت بالأسوار، وبذلك امتنعت مدة على الجيش العباسي ووجود القصور العديدة داخل مدينة المختارة يدل على تنظيم الزنج وبشكل دقيق للغاية حيث نجد إلى جانب قصر صاحب الزنج قصوراً أخرى في المختارة أهمها دار انكلاي ابن صاحب الزنج التي كانت إلى جوار قصر أبيه، ودور الجبائي وابن سمعان وسليمان بن جامع وكلهم من قواد الزنج الكبار، واشادوا القناطير والجسور على الأنهار؛ هذا من الجانب العمراني والسياسي. أما التنظيم الاقتصادي فقد اهتم صاحب الزنج اهتماماً كبيراً بتوفير المؤن والأقوات لعاصمته ولجيشه الضخم، ومن ثم شيد أسواقاً كثيرة في الجانب الغربي من المختارة ومنها السوق ((المباركة)) حيث شغلت قضية المؤن والتموين صاحب الزنج إلى أقصى الحدود منذ بداية ثورته، لذلك استمال الأعراب إلى جانبه وسخرهم في جلب المؤن إلى معسكره ومنعها عن المعسكر العباسي. وهذا هو دلالة التنظيم الكبير الذي قام به الزنج لإنجاح ثورتهم كل هذه المدة. فليس من الممكن أن تكون الثورة بهذه الاستمرارية من دون هذا التنظيم، وعين صاحب الزنج شخصاً جديداً للإشراف على نقل التموين وهو احمد بن الجنيد في مؤخر نهر أبي الخصيب، وكلفه أن يحمل سمك البطيحة إلى معسكره، أما في الجانب الإداري فقد حاول صاحب الزنج أن يقيم في عاصمته مؤسسات إدارية ومالية لا لتشرف على سير الحرب فحسب، بل لتتولى تنظيم الشؤون المدنية داخل الدولة القصيرة العمر التي شكلها علي بن محمد، ولم يقتصر واجب ((صاحب الزنج)) على وضع الخطط وقيادة الجيوش بل كانت له صفة مدنية باعتباره رأس الدولة الزنجية وأعطى لنفسه لقب أمير المؤمنين[١٤]. وكذلك عين له ولاة على الأمصار التابعة لدولته فنجد احمد بن مهدي الجبائي الذي وصل إلى مركز مرموق في دولة الزنج، حتى ولاه علي بن محمد أكثر أعماله وضم إليه محمد بن إبراهيم الذي تولى الكتابة له، فلما مات

الجبائي طمع محمد بن إبراهيم في وظيفته: ((فنبذ الدواة والقلم ولبس آلة الحرب وتجرد للقتال))[١٥] كذلك ضرب النقود التي أصدرها علي بن محمد في عاصمته وهذا ما يشير إلى وجود دار لضرب النقود من ناحية والى إعلان استقلاله الفعلي من ناحية ثانية عن الدولة العباسية، وهناك قطعتان نقديتان ذهبيتان للزنج توجد احداهما في المتحف البريطاني والأخرى في باريس وترجع الأولى إلى سنة ٢٦١هـ في حين ضربت الأخرى سنة ٢٦٤هـ وهذا دليل على أن الحياة العامة والنظم المالية استمرت في دولة الزنج بضع سنوات. وقد نشر الأستاذ ووكر القطعة الأولى الموجودة في المتحف البريطاني في حين نشر الأستاذ كازانوفا القطعة الأخرى الموجودة الآن في باريس[١٦] وهكذا فإن كل هذا التنظيم أسهم في إيجاد هذه الدولة وهو دلالة أكيدة على تنظيمها وبقيت مسألة مهمة أن الزنج قد شملوا بمقولة الضغط يولد الانفجار، فان الضغوطات التي طالتهم هي التي سببت بخروجهم وقيامهم بكل هذه الفوضى. ونود أن نشير كذلك إلى أن الفوضى التي قام بها الزنج لم تنشأ من فوضى تجمعاتهم، بل نشأت من ترتيب صفوفهم أي هي فوضى من ترتيب فهذه الفوضى التي نشأت بسببهم كان يسبقها تنظيم وتبويب لكل دولتهم، وذلك ليستمروا فإن كانوا غير منظمين هذا سيسهم بالتالي في تراجع ثورتهم منذ بدايتها لكن التنظيم سبب استمرار الثورة وانتصارها، ولا ننسى أن جزءاً كبيراً من انتصارات ثورته التي حققها هي بفضل شخصيته التي امتازت بالكثير من المعرفة بأخلاقيات وأدبيات الأقوام التي كانت تحيط به على الرغم من وصف احمد علبي له بأنه ليس بالرجل المفكر والحاكم المثقف بل هو داهية طموح ذو شخصية جذابة[١٧]. ولكننا نختلف اختلافاً كبيراً مع هذا القول وذلك لان صاحب الزنج لولا سعة ثقافته وإطلاعه لما استمرت ثورته ١٤ سنة كتب له من خلالها انتصارات كبيرة، كما أن معرفته بالمجتمع مكنته من القيادة وبالشكل الأفضل له، لذلك يقول الدكتور فيصل السامر عنه: ((كان علي بن محمد رجلاً مثقفاً بمفهوم عصره)) وانه ((كان ذكياً قوي الإرادة طموح ذا نفس وثابة نازعة نحو الآمال الكبار))[١٨] وهكذا نراه واضحاً وذلك للرؤى الاجتماعية والاقتصادية التي امتازت بها ثورته ومكنته من أن يستمر بها طوال هذه السنين بالإضافة إلى حنكته في المجال السياسي والاقتصادي كان لديه ذكاء مفرط مكنه أيضاً من الاستمرار وهذا واضح ويدلك ما يرويه الصفدي (إن أهل البحرين كانوا لا يدعون شيئاً من فضلاته يسقط إلى الأرض إلا ويأخذونه تبركاً به))[١٩] على الرغم من المبالغة التي قد تكون في قول الصفدي، ولكن يتبين من مدلول ما يرويه المكانة التي تميز بها صاحب الزنج بفعل ذكائه المتقد الذي مكنه من تبوأ هذه المنزلة، كما إن الشعارات التي رفعها، والتي تنم من قريب أو بعيد على انه كان على معرفة بآراء الفرق الدينية المتعددة، على الرغم من الاتهامات التي توجه على انه بشعاراته هذه كان خارجياً او زيدياً، ولكنه في الاعتقاد عندما يستخدم مثل هذه الشعارات فإنما هو ذكي يريد أن يستميل اليه بقية المذاهب ولا تدل الشعارات هذه على انه صاحب مذهب مغاير للأمامية الأثني عشرية للأسباب التي ذكرناها، وللإشعار الآتي سترد في خضم البحث، وللصفدي رواية تظهر اهتمام علي بن محمد وولعه الأدبي إذ يقول:

((إن والدته ذكرته بأنه عندما كان معها في الري لا يدع أحداً عنده أدب ولا رواية إلا أخذها))[٢٠] بالإضافة إلى انه اشتغل بالتعليم عندما ذهب إلى سامراء وعلي بن محمد عرف عنه أنه كان شاعراً وأديباً حسن الشعر مطبوعاً عليه[٢١] ويقول القيرواني إن لعلي بن محمد شعراً كثيراً ناقضه البغداديون، وكل هذه الدلائل تناقض ما ذهب إليه الدكتور احمد علبي من إن صاحب الزنج ما كانت لديه ثقافة مهمة. وفيما يخص شعره فقد اتهمه الطبري بأنه شعر استجدائي للكتاب والسلاطين بقصد أن يعطيه هؤلاء الأموال ولكن الأستاذ عبد الجبار ناجي يرد على هذه المسألة بقوله: إن ما وجد من نماذج شعرية هي عبارة عن أبيات معدودة لا تسمح بإعطاء صورة واضحة عن أسلوبه الشعري والمجالات التي نظم فيها أي ان المؤرخين لم يعثروا على قصائد كبار وكثيرة لصاحب الزنج بل من أبيات من هنا وهناك لا تدل على انه كان شاعراً مداحاً كما ذهب الطبري والذي هو احد مؤرخي السلاطين ويقسم شعر علي بن محمد إلى ثلاثة أصناف:

١. صنف يصور فيه نزعاته الشخصية وافتخاره بنفسه ومطامحه في نيل الزعامة والثورة وفيه يقول:

وعزيمتي مثل الحسام وهمتي
نفسي أصول بها كنفس القسور
وإذا تنازعني أقول لها اسكتي
قتلي مريحك أو صعود المنبر
ماقد قضى سيكون فاصطبري له
ولك الأمان من الذي لم يقدر

وله أيضاً:

أما والذي أسرى الى ركن بيته
حراجيج بالركبان مقورة حدبا
لادرعن الحرب حتى يقال لي
قضيت ذمام الحرب فاهتجر الحربا

وله واصفاً كيف خرج بمن بقي معه من الزنوج محارباً وقائلاً:

ساغسل عني بالسيف جالبا
علي قضاء الله ما كان جالبا
واذهل عن داري واجعل نهبها
لعرضي من باقي المذلة حالبا
فأن تهدموا بالغدر داري فأنهم
تراث كريم لايبالي العواقبـا
إذا هم ألقى بين عينيه عزمه
ونكب عن ذكر العواقب جانبا
ولم يستشر في رأيه غير نفسه
ولم يرض إلا قائم السيف صاحبا

وله أبيات تؤيد طموحه للوصول للخلافة حيث يقول:

إن الذي جعل النجوم زواهرا
جعل الخلافة في الأمام الظاهر
قاد العساكر من بنجر(٢٢) مسحرا
بأتم إقبال وأيمن طائر
حتى أناخ على الابلة بعدما
ترك البصيرة كالهشيم الداثر

٢. الصنف الثاني من شعره يعبر فيه عن ثورته وعلى ما كان يجري داخل قصور بني العباس من مفاسد أخلاقية وسهو، ويتضمن الأبيات التالية وفيها يصرح بعقيدته الدينية الشيعية حيث يقول:

لهف نفسي على قصور ببغدا
دوما قد حوته من كل عاص
وخمور هناك تشرب جهرا
ورجال على المعاصي حراص
لست بابن الفواطم الغران لم
اجل الخيل حول تلك العراص

وللبيت الأخير أهمية إذ يشير إلى شيعية علي بن محمد، كما أن البيتين التاليين رداً على الرأي المتعارف بأن علياً كان خارجي المذهب اذ يقول:

متى أرى الدنيا بلا مجبر

ولا حروري ولا ناصب

متى أرى السيف دليلاً على

حب علي بن أبي طالب

وله قصيدة ينقلها الأستاذ جبار ناجي تتضمن عدداً من الأبيات فيها عتاب موجه لخلفاء بني العباس لتقريبهم الأتراك وإبعادهم الشيعة أقاربهم بل تنكليهم بهم والأبيات توضح عقيدته أيضاً:

بني عمنا إنا وانتم أنامل

تضمنها من راحتيها عقودها

بني عمنا لا توقدوا نار فتنة

بطيء على مر الزمان خمودها

بني عمنا وليتم الترك أمرنا

ونحن قديماً أصلها وعديدها

فما بال عجم الترك تقسم فيئنا

ونحن لديها في البلاد شهودها

فاقسم لا ذقت القراح وان أذق

فبلغة عيش أو يباد عميدها

٣. والصنف الأخير من شعره يتضمن أبياتاً غزلية وفيه يقول:

ولما تبينت المنازل بالحمى

ولم اقض منها حاجة المتورد

زفرت اليها زفة لو حشوتها

سرابيل ابدان الحديد المسرد

لرقت حواشيها وظلت متونها

تلين كما لانت لداوود في اليد [٢٣]

وبقي بيتان يختم دوره السياسي فيهما ويسدل الستار على ثورته بتوديعه الجميل لمدينته المختارة وداره حينما أفلحت جيوش العباسيين في هجومها على تلك المدينة اذ يقول:

عليك سلام الله يا خير منزل

خرجنا وخلفناه غير ذميم

فان تكن الأيام أحدثن فرقة

فمن ذا الذي من ريبها بسليم

وهنا لابد من الإشارة إلى أن ثورة الزنج تمت قراءتها بشكل مختلف بين المحدثين والقدماء، فأغلب القدماء قدموها لنا على انها ثورة قتل بالجملة، وبعثرة لكل القيم الإنسانية فالصفدي يقول في مخطوطته عن صاحب الزنج بأنه ((قال الشعر واستماح به ثم حدث في نفسه الكفر والخبث ودعوى الإمامة وعلم الغيب والخروج على الأئمة وضرب الناس بعضهم ببعض)) ونرى مقولة الفصدي بالخروج على الأئمة يقصد بها خلفاء بني العباس، ونستدل بذلك على انحياز الصفدي لسلطة الاستبداد، ولا غرابة فالكثير من هؤلاء المؤرخين إنما هم وعاظ سلاطين ومتبعون بدون دراية لسلطة الاستبداد المتمثلة بالخلفاء الذين هم ظل الله على أرضه في حين توجد قراءة ثانية لصاحب الزنج

تتمثل في المؤرخين المحدثين الذين يضعون صاحب الزنج بمركز يؤهله للقيادة، ويمنحه صفات المصلح الاجتماعي على الرغم من السلبيات التي رافقت ثورته.

الثورة التي جمعت آلالاف من العبيد حوله وكانوا قريبين إليه وبشكل كبير ولكن تشير بعض المصادر ومنها مخطوطة الصفدي بان قلوب الزنج في وقت من الأوقات تغيرت، وساءت أحوالهم، وهموا بالوثوب عليه. ويعلق الأستاذ عبد الجبار ناجي على ذلك بما نصه ((بأنها أول إشارة تاريخية تصرح بحدوث أشبه ما يكون بالتمرد والانشقاق على سلطة قائد الزنج ولم يرد مثلها في المصادر الأخرى))[٢٤]. وبقيت مسألة مهمة وهي آثار ثورة الزنج، وما خلفته من تأثيرات سيئة في اقتصاديات العراق الأدنى وانعكس ذلك على موارد البيت العباسي، وشل الزراعة والتجارة في كل هذه المناطق. كذلك تعطيل المؤسسات العامة للدولة، وتحرير العبيد الذي كان تأثيره سيئاً في المناطق المحتلة من قبلهم، واكبر خسارة لاقتها الخلافة العباسية هي سقوط البصرة وسقوط ميناء الأبلة المهم في الحركة التجارية للدولة العباسية،وكذلك من آثار ثورتهم نشوء مدينتين زاهرتين ترعرعتا وسط ميدان القتال أهمهما مدينة المختارة عاصمة صاحب الزنج، والموفقية مركز قوات أبي احمد الموفق وازدهرت المدينتان بشكل كبير. كذلك من آثار هذه الثورة إبراز شخصيتين مهمتين هما: صاحب الزنج الذي كان شخصية مغمورة لكنه بذكائه وتنظيمه وقدرته العملية استطاع ان يبرز شخصية مهمة جداً ويستمر ١٤ سنة. أما الشخصية الثانية فهي شخصية الموفق العباسي الذي استطاع أن يهزم الزنج، وصاحبهم علي بن محمد على الرغم من ذكائه المتقد وصعوبة المكان الذي تم القتال فيه بين الجانبين، أن التأثيرات التي سببتها هذه الثورة مهمة للغاية وتمثل حلقة انتقال بين حالتين كانت عليهما البصرة ما قبل خرابها على يد علي بن محمد. أما أسباب إخفاق هذه الثورة على الرغم من كل ما اشرنا إليه من تنظيم وذكاء وغيرها من الأمور فهي:

١ـ كانت ثورة الزنج حركة ضيقة لا تنطوي على برنامج دقيق، ونظرية تضمن لها البقاء والانتشار الواسع. وكان بقاؤها وقوتها منظويين بزعيمها واندفاع أتباعه العبيد من ناحية، وبضعف الخلافة وانشغالها من ناحية ثانية. وهذا ما يفسر عدم رواج الدعوة بين الأحرار من أهل البصرة.

٢ـ إن اعتناق صاحب الزنج مبادىء الخوارج الازارقة جلب عليه نقمة العلويين، وبغضهم لأن الخوارج كانوا ألد أعداء الشيعة مما حدا هؤلاء إلى عدم التعاون مع علي بن محمد.

٣ـ كانت ثورة الزنج قد قامت إبان ضعف الخلافة العباسية، وتفسخ الإدارة والسياسة في العاصمة، فأتاح هذا الضعف لصاحب الزنج ان ينشر دعوته في المناطق الجنوبية من العراق، حيث لا توجد قوات كبيرة للدولة فلما تولى الأمر ابو احمد الموفق وكان شخصاً قوياً حازماً استطاع بعد فراغه من أعدائه الآخرين أن يركز جهوده نحو حركة الزنج فيقضي عليها قضاء مبرماً.

٤ـ كان الزنج قد لبوا دعوة علي بن محمد فراراً من وضعهم السيىء وأملا في تحسين حالتهم الاجتماعية المزرية، فلما رأوا أن الحركة لم تسفر عن نتائج حاسمة وأن الموفق منحهم الأمان وأغدق عليهم الأموال هجروا زعيمهم والتحقوا بجيش العباسيين بعد أن وقعوا بالجوع وتعرضوا لخطر الموت.

٥ـ كان لشخصية الموفق أثر كبير في القضاء على هذه الحركة، فقد استطاع أن يعبىء الجيوش الضخمة والقوات الكبيرة، ويحشد الأموال والذخائر في الموفقية، فيتمكن من أن يشل ثورة الزنج ويقضي عليها.

٦ـ إن الحصار الاقتصادي الذي ضربه الموفق على الزنج كان عاملاً مهماً في القضاء عليهم لأنهم في أيامهم الأخيرة اخذوا يقاسون قلة الغذاء حتى إن الأسير منهم على حد قول الطبري كان يسأل عن عهده بالخبز فيذكر انه لم يذقه من سنة. ويغالي المؤرخون فيقولون إنهم أكلوا لحوم الناس بل لحوم الموتى. وهذا الضيق دفع الكثيرين منهم إلى أن يهجروا معسكرهم مستأنسين إلى الموفق حتى إن صاحب الزنج وجد نفسه في أيامه الأخيرة في شرذمة قليلة من إتباعه وكان هذا عاملاً أساسياً من عوامل إخفاق الثورة.

٧ـ لم تكن ثورة الزنج خروجاً على الدولة والنظام القائم فحسب، بل خروجاً على الدين كذلك في نظر

المعاصرين لذلك تطوع آلاف الناس لحرب الزنج من العراق وفارس والبحرين. وهذا هو الطابع الذي انطبعت به كل الحركات التي قامت آنذاك فنظر إليها الأتقياء والمتدينون نظرة سخط ومقت ووصموها بالزندقة والزيغ ومخالفة الدين.

٨. كان جيش العباسيين يقوم على تنظيمات عسكرية دقيقة، واسلحة متنوعة، ويتمتع بتدريب جيد، وتغذية حسنة في حين كان أسلوب الزنج أشبه بحرب العصابات لا تقدر إلا على الهجوم الخاطف القائم على السرعة وبث الكمائن، لذلك كانت انجح غاراتهم هي الغارات الليلية ونادراً ما قام الزنج بهجوم منظم ووقفوا وجهاً لوجه إمام الجيش العباسي.

٩. كان طول المدة التي استغرقتها الثورة عاملاً مهماً في عدم نجاحها لان الزنج فقدوا كثيراً من قواتهم كما لقوا مقاومة من أهالي جنوب العراق فضلاً عن مقاومة الدولة.

١٠. ان سعة المنطقة التي احتلها الزنج أدت إلى بعثرة قواتهم هنا وهناك والى تفريق حاميات ضئيلة العدد من كل مركز احتلوه، وهذا عامل مهم أيضاً في إخفاق الثورة فقد تعذر على صاحب الزنج تركيز قواته في الأماكن التي يتطلبها الموقف العسكري.

١١. إن الأضرار التي تعرض لها أهل المدن التي احتلها الزنج زادت من ضراوة مقاومتهم للثورة، وقد زاد من عداء الأهالي إن الزنج كانوا من عبيدهم فشق عليهم أن يغدوا سادة لهم[٢٥]. وهكذا نرى هذه الثورة وأهميتها من الناحية التاريخية وتأثيراتها الاجتماعية، اعتقد أن هذه الثورة كان لها صدى واسع في المجال الفكري المعرفي على الرغم مما رأينا فيها من مساوىء وكان أهم شيء أفرزته هذه الثورة حالة العبودية التي كان فيها الزنج والمعاملة السيئة اللإنسانية في العهود الإسلامية التي واكبت هذه الثورة. إن النهضة التي بالإمكان الاستفادة منها من خلال هذه الثورة مسألة الحرية التي يجب أن تعطى للإنسانية جمعاء.

الهوامش

١. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٣ ص٢١، تاريخ ابن الوردي ج٦ ص٢٣٣
٢. ابن أبي الحديد ج٨، ص٣١١
٣. الطبري ج٣، ص١٧٤٣
٤. عبد الجبار ناجي، صاحب الزنج الثائر الشاعر، مجلة المورد، العددان ٣-٤ ١٩٧٢م
٥. ابن الجوزي، المنتظم ج٥، ص٦٩
٦. noldeke pp ١٤٧-١٤٦
٧. احمد علبي، ثورة الزنج وقائدها علي بن محمد، مجلس ثورة الزنج، ص٩٠-٩١
٨. المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج٤ ص١٩٩، حسن إبراهيم حسن، الدولة الفاطمية، ص٣٦، ٣٥
٩. الطبري ج٣، ص١٨٤٨
١٠. البداية والنهاية، ج١١، ص١٩
١١. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٣٠
١٢. ابن الاثير، ج٧، ص٩٧.
١٣. المنتظم، ج٥، ص٦٧
١٤. ابن الجوزي، الأذكياء، ص٣١-٣٢
١٥. النجوم الزاهرة، ج٣، ص٢٧
١٦. azanovay, revue numismatique, p.51
١٧. احمد علبي، ثورة العبيد في البصرة، مجلة الطريق، ص١٠٥،
١٨. فيصل السامر، ثورة الزنج، بيروت، ١٩٧١م، ص٥٩
١٩. مخطوط الوافي ورقة ١٦٩ (ب)
٢٠. مخطوط الوافي للصفدي
٢١. ابن أبي الحديد م٢، ص٣١١
٢٢. بلنجر: مدينة ببلاد الخزر خلف باب الابواب فتحها عبد الرحمن بن ربيعة ويقال سلمان بن ربيعة الباهلي، ياقوت الحموي معجم البلدان، ج١، ص٧٢٩
٢٣. ابن ابي الجديد، المجلد الثاني ص٣١١.
٢٤. عبد الجبار ناجي، صاحب الزنج الثائر الشاعر، العددان ٣-٤ المجلد الأول ١٩٧٢م، ص٢١١
٢٥. فيصل السامر، ثورة الزنج، دار إحياء التراث العربي، ط٢ ١٩٧١ بيروت.